

السيميوزيس البورسية في منظومة إيكو السيميائية*

Semiosis Peirce's in the semiotic Eco system

د. محمد الطاهر عباس

مخبر التأويل وتحليل الخطاب

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية (الجزائر)

البريد: abas58@live.fr

ملخص : اعتمد إيكو في منظومته السيميائية على الموروث البيرسي، خاصة مفهومي العلامة والسيميوزيس، وظهر أثر ذلك في مفهوم التأويل الذي بنى عليه إيكو نظريته في سيمياء الثقافة، حيث اعتمد مبدأ التأويل في إطار الموسوعة بدل القاموس، بغية أن يمنح مجالا أوسع وأرحب للتأويل والافتراض، وذلك بما يناسب انفتاح العلامة السيميائية ومفهوم السيميوزيس البيرسية، وقد اعتبر إيكو الموسوعة خزانة للمؤول الدينامي الذي يتضمن حركة السيميوزيس واستمراريته، مفرقا بين التأويل في السيميائية الذي يتضمن سيرورة متصلة للعلامة، لا تنقطع فيها الصلة بمنطلق عملية التأويل، وبين التأويل في كل من المتاهة الهرمية والتفكيكية، حيث تنقطع الصلة بمنطلق التأويل أو يهدم النص ويبقى الانفتاح عملية هلامية سطحية، لا تستقر على مدلول قار أبدا.

الكلمات المفتاحية : سيمياء الثقافة - الموسوعة - السيميوزيس - التأويل.

Abstract: In cultural semiotics, ECO UMBERTO depended on Peirce's inheritance especially with the sign and semiotic designations. This manifests itself in the meaning of the interpretation on which he based his semiotic theory. In addition, he adopted the interpretation within the framework of the encyclopedia instead of the dictionary to offer more possibilities for interpretation. This is treated in adequacy with what is appropriate for the opening of the semiotic sign and the semiotic concept of Peirce. Eko considered the encyclopedia to be a reservoir for the dynamic interpreter, which ensures semiotic

movement, distinguishing between the semiotic interpretation, which ensures a joint approach of the sign, where the relation is not interrupted on the principle of operation of interpretation and interpretation in the labyrinth of Herms and in the Deconstruction and Difference in which the relationship breaks down with the principle of interpretation (or) the text is destroyed but the opening remains a superficial pectin operation that never stabilizes on a meaning.

Keywords : sémiotique Culturelle, encyclopédie, signe sémiotique, semiosis, interprétation

السيميوزيس البورسية في منظومة إيكو السيميائية

العلامة البيرسية وأسسها الثلاثية:

يعتبر بيرس Peirce أبا شرعياً للسيميائية، نظراً لما قدمه من نظريات ومفاهيم لمفهوم العلامة السيميائية. إنّ العلامة البورسية هي امتداد لنظرية المقولات البورسية نفسها، فالعلامة عنده هي تجسيد لنظرية المقولات داخل الممارسة الإنسانية، فالأولانية، والثانية، والثالثة هي سيرورة إدراكية ليس لإدراك العلامات فقط، بل لإدراك العالم والوجود بأكمله، كما أنّ سيميائته تتم "بأبعاد ثلاثة: بعد تركيبى وبعد دلالي وبعد تداولي، ويعود ذلك إلى أنّ الدليل ثلاثي. والبعد الأول هو بعد الممثل أو الدليل باعتباره دليلاً. ومن البديهي أن الدليل اللساني ليس سوى حالة خاصة. والبعد الثاني هو بعد موضوع الدليل أي ما يعينه الدليل أي المعنى، والبعد الثالث هو بعد المؤول الذي يجعل الدليل يحيل على موضوعه لأنّ قواعد الدلالة تتوفر فيه"⁽¹⁾. العلامة إذاً مبنية على هذا المبدأ الثلاثي الحصري، وهو مبدأ غير قابل للاختزال، كما أنّه غير محتاج للإضافة، بل يحافظ على رقم ثلاثة فقط، وكل التفريعات داخله مقبولة بشرط الحفاظ على المبدأ الرئيس، مبدأ الثلاثية، فالدليل البيرسي ثلاثي المبنى، يتكون من (ممثل، موضوع، مؤول). وترتبط فيه العلامة البيرسية بمفهوم السيميوزيس، الذي خصه بورس بالدراسة والبحث، وكان مدداً للسيميائيين من بعده.

مفهوم السيميوزيس البورسية:

إن أبرز مفهوم يمكن تتبعه في سيمياء بورس هو مفهوم السيميوزيس، الذي يرتبط ويقترن بمفهوم آخر هو التأويل، حيث يفتح السيميوزيس عند بورس انطلاقا من عملية تأويلية غير متناهية، ويستمر انفجار العلامات وفق مبدأ الثلاثية الذي استقاه من المنطق الرياضي، فإذا كانت "الإحالات الناتجة عن تمثيل أول تنطلق من فعل تأويلي يكتفي بحصر المعطيات الأولية المنتمية للتجربة المشتركة، فإن التخلص من لحظة التمثيل هذه تقتضي إخضاع هذا المؤول لرجة تخرج به من نطاق التمثيل المباشر والمألوف لكي تسكنه عوالم غير مرئية من خلال التمثيل الأول، وهذا ما يفتح الباب واسعا أمام سلسلة من التأويلات التي تستدعي، مع كل مسار تأويلي، بناء سياق خاص انطلاقا مما تقترحه العلامة في صيغتها البدئية، وذلك ما كان يطلق عليه بورس بالغايات التي يتم وفقها أي تأويل، وليست هذه الغايات سوى حاجات الذات المؤولة"⁽²⁾. فسيرورة السيميوز هي سيرورة غير منتهية من حيث المبدأ الثلاثي للعلامة، فكل ثلاثية تولّد ثلاثيات جديدة وتستمر في التولّد المتنامي، وهذا ما يمنح السيميوزيس السيرورة المتنامية غير المتناهية من حيث المبدأ والمنطلق، أما من حيث الغايات فإن وقف العلامة على معنى معين أو غاية محددة مقترن بثقافة المتواصلين والمستعملين للعلامات السيميائية، وهي مقترنة بفعل القراءة وعملية التأويل، ففي مرحلة القراءة أو فك التشفير يتم قبول مدلولات معينة وتجاهل مدلولات أخرى، غير أن قبول البعض وإقصاء البعض ليس معناه أن المدلولات المقصاة غير صحيحة أو غير صالحة، بل على العكس من ذلك تماما، لأن هذه المدلولات المقصاة قد تكون مقبولة في مقام آخر وموضع آخر، وتكون المدلولات المقبولة مقصاة هي الأخرى في ذلك المقام الجديد، وعليه ف"إن السيرورة التأويلية - رغم كل ما قلناه - متناهية من حيث التجسيد العملي، أي من حيث ارتباطها في التحقق الفعلي بسياقات خاصة تمنح وحداتها هوية خاصة"⁽³⁾، وهنا يكون للثقافة الأثر البارز في توقيف الدلالة عن التنامي اللامتناهي.

يقترن مفهوم السيميوزيس البورسي بمفهوم التأويل، ويختلف عن المتاهة التأويلية في كون العلاقة في السيميوزيس قائمة بين نقطة انطلاق التأويل والفعل التأويلي المستمر، أما في المتاهة

التأويلية فتتقطع، "وهذا ما يشكل الفاصل الحقيقي بين ما اصطلح عليه بالمتاهة التأويلية (dérive interprétative) وبين السيميوز في التصور الذي يقترحه بورس. ففي المتاهة التأويلية تنبعث الدلالة من فعل العلامة كسيرورة بلا رادع ولا ضفاف ولا حدود. فما نحصل عليه من معرفة، بعد أن يستنفد الفعل التأويلي طاقته، لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل؛ فبإمكان أي علامة أن تحيل على أية علامة أخرى، كما بإمكان أي شيء أن يشير إلى شيء آخر"⁽⁴⁾، لا تقف المتاهة التأويلية على مدلول أبداً، وليس لها محطة ولا حدود حافة، بل انفجارات تأويلية وتولد غير متناه للمعاني ليس له علاقة مع نقطة الانطلاق، فانتشار المعاني وتولدها انتشار سرطاني لا يمكن وقفه أو تحديده.

الانفتاح والتأويل عند إيكو:

استلهم إيكو مفهوم السيميوزيس من بورس وسعى إلى دراسته، وهذا ما يصرح به في كتابه التأويل والتأويل المفرط، يقول: "في كتاباتي (نظرية في السيميوطيقا، دور القارئ، والسيميوطيقا وفلسفة اللغة) قمت بدراسة دقيقة حول الفكرة البيرسية للتطبيق السيميائي semiosis اللانهائي، وحاولت في أثناء حضوري لمؤتمر بيرس الدولي بجامعة هارفورد (سبتمبر 1989). توضيح أن فكرة التطبيق السيميائي اللانهائي لا تؤدي بنا إلى الاستنتاج بأنه ليس للتأويل (باعتباره الملح الأساسي للتطبيق السيميائي) لا محدود من الوجهة الإمكانية لا يعني أن التأويل لا يملك موضوعاً، وأنه يجري جريان النهر لا شيء سوى ذاته، والقول بأن النص لا يملك نهاية من الوجهة الاحتمالية، لا يعني أن كل فعل للتأويل يمكنه أن يحوز نهاية سعيدة"⁽⁵⁾. تبحث السيميوزيس الهرمسية إذن "في كل نص، كما في النص الكبير للعالم، عن امتلاك المدلول لا عن غيابه. ومع ذلك، فإن هذا العالم الذي تغزوه الذاتيات ويحكمه مبدأ التدليل الكوني، ينتج انزلاقات [دلالية] لا تتوقف، ومن ثمة فهو يحيل على أي مدلول. فما دام مدلول كلمة أو شيء ليس سوى كلمة أخرى أو شيء آخر، فإن أي شيء ليس سوى إحالة مبهم على شيء آخر. ولهذا السبب، فإن مدلول نص ما قضية لا أهمية لها، والمدلول النهائي سر يستعصي على الإدراك"⁽⁶⁾. يفتح التأويل بشكل لا متناه في المتاهة الهرمسية التي تتميز "بقدرتها على الانتقال من مدلول إلى آخر، ومن تشابه إلى آخر ومن رابط إلى آخر دون

ضابط أو رقيب"، والمميز للمتاهة الهرمسية هو إمكانية الانتقال والانفتاح دون إيجاد أي رابط - أو علاقة- ولو كان هذا الرابط خفياً في الذات أو جزئياً.

يتساءل إيكو تبعاً لما تقدم عن إمكانية الحديث عن "سيميوزيس لا متناهية انطلاقاً من قدرة المتاهة الهرمسية على الانتقال من حد إلى حد ومن شيء إلى آخر؟ وهل يمكن أن نتحدث عن سيميوزيس لا متناهية من خلال الأساليب التي يستعملها القراء المعاصرون الذين يتيهون في النص بحثاً عن لعب سري بالكلمات أو عن الاشتقاقات المجهولة، والتداعيات اللاواعية، والصور الغامضة التي يسبر أغوارها قارئ فطن من خلال النسيج اللفظي الظاهري حتى في غياب أي إجماع بيذاقي حول قراءة من هذا النوع؟"⁽⁷⁾. يصوغ إيكو انطلاقاً من هذه التساؤلات وجهة نظره التأويلية، ويحدد مفهوم المتاهة الهرمسية وعلاقتها بالسيميوزيس البورسية، والتي تختلف عنده عن التفكيكية التي تقوم بهدم النصوص واللعب الحر بالمدلولات، "فالتأويل في الهرمسية موجه نحو معنى، أي نحو حقيقة منتشرة في كل الأنشطة الإنسانية، ولا يشكل النص سوى تجلٍ من تجليات هذه الروح التي تسكن طبقاته ولا تكشف عن نفسها إلا من خلالها"⁽⁸⁾. لا تفتح المتاهة الهرمسية من وجهة نظر إيكو على التداعي الحر غير المؤسس، كما "لا يجب أن تقود السيرورات التأويلية في هذه المتاهة إلى إعادة بناء النص، والكشف عن انسجامه المزعوم، فذلك أمر لا يقود إلا إلى التعرف على المعروف، بل عليها عكس ذلك، أن تقوم بتقويض ما يوهم أنه يشكل وحدة مترابطة، يجب أن يخفي النص لكي تنبعث الدلالة من رماده"⁽⁹⁾. وهكذا تنفصل المدلولات التي تولدها المتاهة عن أي علاقة بمنطلق عملية التأويل؛ أي بالنص الذي يشكل علامة في حد ذاته، لأن التأويل لا يطلعنا على ما نعرفه من مكونات النص، بل يكشف عما لا يظهر في النص.

لا يعد التأويل تبعاً للمتاهة التأويلية إجراء تحليلياً محضاً، كما أنه ليس ترفاً معرفياً وفكرياً، بل هو "ضرورة إنسانية فرضتها تشعبات الوجود الإنساني وغموض نهاياته وضياح أصوله الأولى ذاتها. هناك ميل داخل الذات الإنسانية يدفعها إلى البحث عن جذور الحياة وعمقها وامتدادها في أصول غابت عنا ولم نعد نعرف عنها أي شيء، إلا ما تقوله نصوص مغرقة في رمزيتها رغم وجهها الحديث المشخص"⁽¹⁰⁾. إن هذه النظرة الشاملة والشمولية للوجود الإنساني بكل غموضه وعمقه وإيغاله في

التعقيد، هو ميدان اشتغال وتظهر للمتاهة الهرموسية، حيث تقوم سيميائيات بورس على مبدأ الثلاثة (الممثل، الموضوع، المؤول) التي استقاها من فلسفته الوجودية ومنطقه الرياضي، والعلامة عنده هي كل شيء يحيل إلى شيء آخر. "إن هذه المعرفة المضافة (بالمعنى البورسي للكلمة) تدل على أنّ الانتقال من مؤول إلى آخر يكسب العلامة تحديداً أكثر اتساعاً سواء أكان ذلك على مستوى التقرير أو على مستوى الإيحاء. إن التأويل باعتبار موقعه داخل نسيج السيميوزيس اللامتناهية، يقترب أكثر فأكثر من المؤول النهائي المنطقي. فالسيرورة التأويلية تنتهي في مرحلة ما، إلى إنتاج معرفة خاصة بمضمون الماثول أرقى من تلك التي شكلت نقطة انطلاق هذه السيرورة"⁽¹¹⁾. لكن لا تنقطع الصلة بالمنطلق بل ترتقي وتشكل في شكل أرق وأكثر تبلوراً من خلال اعتمادها على موسوعة القارئ وثقافته المتنامية.

في مقابل ذلك نجد بأن تولد المدلولات في المتاهة الهرمسية يتم إيجائياً، كما هي الحال في سيمياء الدلالة البارتية، فقد استقى بارت ثنائية التقرير والإيحاء من هامسليف وأضاف إليها ما يثريها، بحيث منحها إمكانية ضم مختلف العلامات - اللغوية منها وغير اللغوية - وهذا ما يبرز الترسيم التالية:

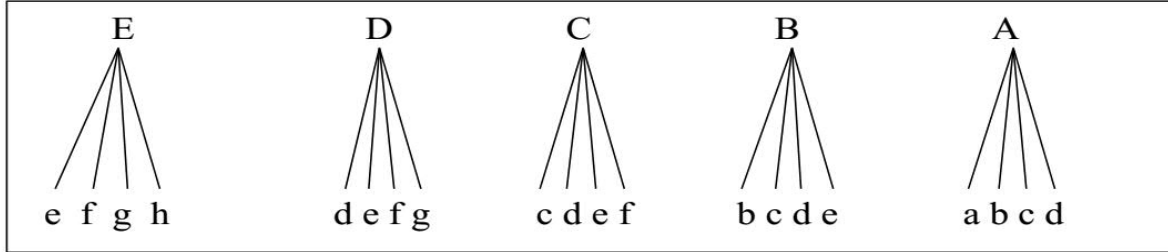
م	ت
م	ت

أما ما تقدمه الترسيم الموالية، فإنه يرمي إلى تأكيد النمو الإيجائي من النوع السرطاني:

م	ت	م
م	ت	م
م	ت	م

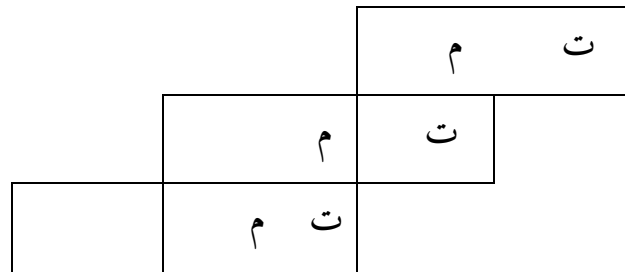
فداخل هذه الترسيم يقوم تعبير بسيط، (الانتقال من تعبير إلى تعبير)، في لحظة ما، بفتح سلسلة جديدة من الإيحاءات المزيفة التي ينتفي فيها رابط بين مضمون العلامة الأولى ومضمون العلامة الجديدة"⁽¹²⁾. تتولد الدلالات الإيجائية مشكلة بذلك المتاهة الهرموسية التي تنقطع فيها

العلاقات بين المدلولات والدوال الأولية، فهو انتشار غير مرتبط ببعضه البعض، ويمثل إيكو هذا الانتشار في المخطط التالي:



الشكل (13)

يمثل هذا الشكل سيرورة المتاهة الهرموسية وتولد الإيحاءات، حيث يتم الانتقال بين العلامات دون الحاجة إلى بقاء الاتصال بالعلامة الأولى لأنها منفصلة عنها تماماً، وهذه العلامات الجديدة غير مرتبطة بالمنطق التأويلي. على نقيض ذلك نجد السيميوزيس اللامتناهي لبورس، والذي يبقى متصلاً ببعضه البعض، من خلال التولدات الدلالية والعلامية المرتبطة بنقطة انطلاق التأويل دون أن تنفصل عنه مثلما هي الحال في المتاهة الهرموسية، وهذا الشكل يمثل تولد الدلالات في السيميوزيس البورسي:



الشكل (14):

لا تنفصل العلامات المتولدة عن سابقتها بل تشكل نسقا سيميائيا متولدا ومتربطاً اعتماداً على مبدأ الثلاثية البورسية، وخصوصاً المؤول الذي يعتبر الوسيط بين الممثل والموضع الذي يحيل عليه الممثل عبر المؤول. لقد استفاد إيكو من الطرح البورسي، وحاول أن يكون له موقع التوسط بين الانغلاق والانفتاح، ولهذا كرس "جهوداً كبيرة كي يتخذ منها وسطياً، يكون ردعا لكل محاولة متطرفة تروم غلق المعنى وخندقته في مقولات، أو فتح تأويلات على مصراعيها. لقد اتخذ هذا

الردع جانبا تصوييا باقتراحه قراءة تصحيحية كاملة غير تليفقية مبسترة لأفكار بيرس في هذا الميدان، وجانبا تنظيريا طال الاقتراحات المنهجية لقراءة النصوص والعالم قراءة يفرضها عالم الخطاب، وجانبا حاجيا لامس الردود على التفكيكيين الذين حاولوا قراءة بيرس قراءة هلامية⁽¹⁵⁾، فقوضوا بنية النص والمعنى الأصلي وحاولوا بناء نصوص جديدة لا علاقة لها بالنصوص الأصلية، وذلك اعتمادا على مبدأ إقصاء صاحب النص وموت المؤلف؛ هذا الإقصاء هو نقطة فصل للدلالات المتولدة عن نقطة انطلاق عملية التأويل اللامتناهية، فالنص في تصور ديريدا، "آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية. فهذا النص، باعتبار ماهيته المتعاقبة، يشكو أو ينتشي من غياب ذات الكتابة، ومن غياب الشيء المحال عليه أو المرجع"⁽¹⁶⁾.

إن فصل النص عن صاحبه وربطه بالقارئ وحسب، هو بتر للقصدية التي أرادت ذات المؤلف للعمل، والنص باعتباره علامة تنقطع فيه الصلة بين العلامة المتولدة والعلامة الأصلية، والقول "بأن العلامة تشكو من غياب مؤلفها ومن مرجعها لا يعني بالضرورة أنها محرومة كلية من مدلول مباشر. إن غاية ديريدا هي تأسيس ممارسة (فلسفية أكثر منها نقدية) تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصریح. إنه لا يريد تحدي معنى النص فحسب، بل يطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي. إن ما يسعى إلى البرهنة عليه هو السلطة التي تملكها اللغة المتجلية في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة"⁽¹⁷⁾. إن هذا الأمر متعلق بإيحاء الألفاظ وما تحتزنه من معان خفية غير جلية، لكن عدم جلاء هذه المعاني لا ينفها بل يفرض حسب التفكيكيين البحث عنها وتتبعها، ولا يتم ذلك إلا بفصلها عن قصد المتكلم أو صاحب النص، لأن الإبقاء على الصلة قائمة مع المؤلف تمنع من انفتاح الألفاظ، وتتبع ما تكتنزه من إيحاءات ضمنية.

أهمية التأويل في منظومة إيكو السيميائية:

يقر إيكو بأهمية التأويل البارزة في مسيرة السيميوزيس، ولا ينكر "بأن استعمال الأدلة يولد غزارة وغنى في كنف السيميوزيس المكون من الأطراف الأربعة: ماثول ومؤول وعماد وموضوع، فالعماد مثلا يعرفه بيرس وكأنه فكرة خاصية (أو مجموع خصائص) لدليل ما، أي كأننا إزاء أيقونة

ذهنية، يمكن عن طريقها إنشاء مؤول آخر للدليل". فالمؤول هو مفتاح التأويل وعلى أساسه يفتح السيميوزيس، "ففي الواقع هناك تعريفان للمؤول؛ يرمي الأول إلى الاعتقاد بأن المؤول عبارة عن دليل ثان يترجم الذي قبله، ويرمي الثاني إلى أنّ المؤول فكرة تعطى بواسطتها سلسلة من الأدلة"⁽¹⁸⁾. بين التعريف الأول والثاني يكتسب السيميوزيس طبيعته الانفتاحية اللامتناهية، ولا يمكن للماثول "أن يشتغل إلا من خلال إثارته لمؤول يتحول بدوره إلى علامة وهكذا دواليك. لذا فإن المدلول لا يستطيع أبدا التماهي مع نفسه. إن الخلاصة الرئيسة للماثول هي أن يكون ذاته وشيئا آخر في ذات الوقت، أي المثل كبنية للإحالة وكقدرة على الانفصال عن نفسه. والحال أن الشيء الممثل هو دائما ماثول، فلا وجود إذا للعلامات إلا من خلال وجود المعنى"⁽¹⁹⁾. وهذا المعنى لا يمكن تتبعه إلا من خلال المؤول، دون أن نميل إلى تعريف من التعريفين السابقين، "وعلى غرار هذا كله، وجد أن ما يهمه فعلا في التربع على كرسي التوسط المنهجي بين النزعتين المتطرفتين، هو الاستفادة من التقسيم الثلاثي الذي أولاه بيرس لمفهوم المؤول.

1- المؤول المباشر: أي الذي يعادل في البحث الدلالي العام مفهوم المدلول، يتخذ في أغلب الأحيان منحى حرفيا قاموسيا.

2- المؤول الدينامي: وهو الأثر الذي أنتجه الدليل، وتبدأ به السيميوزيس في انفتاح يبدو للوهلة الأولى أنه غير منته.

3- المؤول النهائي: وهو المؤول الذي يكف من الانفتاح الفائض الذي ولده المؤول الدينامي"⁽²⁰⁾. وهذا التقسيم استقاه بورس من فلسفته في الوجود حيث يمثل المؤول المباشر الأولانية والتي تمثل مرحلة الوجود النوعي الموضوعي غير الفعلي، ويمثل المؤول الدينامي الثانية والتي هي تمثل مرحلة الوجود الفعلي المتجسد والمتحقق، بينما يمثل المؤول النهائي الثالثة والتي تمثل مقولة القانون والضرورة التي تبرر للأولانية والثانية وتربط بينهما.

دور المؤول في العملية التأويلية وانفتاح العلامة:

يتضح من خلال ما سبق الدور الكبير للمؤول في العملية التأويلية، وفي انفتاح السيميوزيس على الدلالات اللامتناهية، وذلك عن طريق التداول الذي يمكن من تتبع أغوار المظاهر المتنوعة

للوجود وللأشياء، حسب علاقاتها وموقعها، و"بما أنّ التأويل هو دائماً زحزحة للعلاقات، وتغيير للمواقع، وإعادة لترتيب عناصر العلامات، فإن ما يضمن سلامة التأويل ودوامه واستمراره في إنتاج الدلالات المتنوعة هو وجود هذا الحد الأدنى المعنوي المرتبط بتجربة حياتية، لا تتجاوز حدود الاستجابة للبعد النفعي فيها. من هنا كان النظر إلى المؤول المباشر باعتباره قراءة أولية في معطيات ظاهرة في أفق فتح آفاق متنوعة أما مستوى آخر من مستويات التدليل" (21).

يمثل المؤول علامة أكثر تطورا باعتباره يمثل الثانية، فهو يمثل مرحلة الوجود الفعلي في فلسفة بورس، ويتيح إمكانية البحث عن علامات أخرى، والمؤول المباشر في هذه السيورة التأويلية لا يمثل سوى مرحلة جزئية ثابتة من التجسيد الفعلي، ذلك أن الوقائع والعلاقات القائمة بين العلامات والمدلولات تستدعي عنصر الزمان بامتداده التاريخي، وتحول هذه السيورة التاريخية إلى مخزون ثقافي وذاكرة إنسانية يغترف منها في العملية التأويلية المتنامية. "وعلى هذا الأساس فإننا نعثر في تصور بورس على نوع ثان من المؤولات، قد يستجيب لهذه الحاجات، يطلق عليه بورس المؤول الديناميكي، وهذا المؤول مرتبط في الوجود بالمؤول الأول، إلاّ أنّه يختلف عنه من حيث الطبيعة (فهو متجدد باستمرار)، ومن حيث الاشتغال (فهو قراءة في السياق الذي يوجد خارج العلامة، أي مجمل المضامين الثقافية التي تشير إليها العلامة)" (22). يمتاز هذا النوع من المؤولات بالحركية والاستمرارية التي تتناسب مع استمرارية التجربة الإنسانية المستمرة، والتشكلات الثقافية المتنامية للذاكرة الإنسانية، منطلقا في ذلك من المؤول المباشر الذي يعد منطلقا للعملية التأويلية، وسيورة السيميوزيس اللامتناهية من جهة، والمترابطة غير المنفصلة عن بعضها من جهة ثانية.

يتضح من خلال ما سبق أنّ المؤول الديناميكي بإحالاته إلى حركية تأويلية منطلقا من المؤول المباشر، هو تمثيل لسلسلة تأويلية هي مركز السيميوزيس وتجسيده الفعلي المتنامي، غير المحدد بأفق أو غاية، مستند إلى المخزون الثقافي والمعرفي والتجربة الإنسانية بكل تنوعاتها الممكنة، "وعلى هذا الأساس فإن ما يطلق العنان لهذا الحركة، وما يمدّها بعناصر التأويل هو هذا المؤول الذي يغرف عناصر تأويله من مصادر متعددة: الثقافي والإيديولوجي والخرافي والأسطوري والديني، وكل ما يمكن أن يسهم في إغناء التأويل وتنويعه. ومن خلال هذا فإنه يدرج السيميوزيس - وتلك وظيفته

- ضمن دائرة اللامتناهي، أي ضمن دائرة تأويلية يفترض بورس أنها غير محكومة بنهاية أو غاية بعينها⁽²³⁾. فكل علامة سيميائية تدرج في مسيرة السيميوزيس اللامتناهية بفضل المؤول الديناميكي الذي يمنحها كينونتها وسيرورتها، مرتبطة في ذلك بالوقائع والعلاقات المختلفة، المحتكمة إلى المخزون الثقافي والمعرفي، وغير منفصل عن المؤول المباشر والعلامات السابقة في السيميوزيس، ف"الانتقال من مؤول إلى آخر لا يقوم على أساس إلغاء ما سبق من المعارف. وهذا هو جوهر سيميائيات بورس. إنَّ النقطة النهائية التي نصل إليها تزيدنا معرفة بالنقطة التي انطلقنا منها. ولا يمكن للتأويل أن يكون إلغاء للبدء. فكّما توغل التأويل في أدغال العلامة إلّا وأنتج مزيدا من المعرفة. فنحن نؤول وفق غايات خارج سيميائية"⁽²⁴⁾.

استندت العديد من النظريات القائمة على مبدأ التأويل على أسس بورس والسيميوزيس المتناهي لكن نقطة الاختلاف الجوهرية بين السيميوزيس اللامتناهي وبين هذه النظريات كالتفكيكية مثلا، هي أن العلامات تبقى متصلة ببعضها البعض، وهنا يبرز نوع ثالث من المؤولات يمثل الثانية، ومقوله القانون والضرورة المستند إلى المؤول المباشر والمؤول الديناميكي، هو المؤول النهائي، وهو المنوط بوقف السيرورة اللامتناهية، ذلك أن "الغايات الخارجية التي لا يكف بورس عن الإشارة إليها، وكذا التصنيفات المنطقية المرافقة لكل حكم دلالي تشهد على وجود كايح دلالي يوقف التدليل عند حد بعينه"⁽²⁵⁾.

إن المتمعن في توقيف الدلالة عند حد بعينه يكتشف أن هذا التوقف ليس قطعاً لسيرورة السيميوزيس، بل هو محطة جانبية مقترنة بثقافة المؤول وذاكرته، ف"المؤول النهائي يختلف من مجتمع إلى آخر، ولا يصلح إلا لوضعيات دينامية، كما أن المؤول بالإضافة إلى ذلك يستدعي بنفس القدر الإحساس والذكاء"⁽²⁶⁾. وهذا ما يشكل زمر العلامات المترابطة ببعضها البعض. هذه العلامات التي تولدها المؤولات النهائية لها طابع ثقافي مرتبط بالمجتمع وثقافته، والمؤول ورصيده المعرفي الثقافي وذكائه التأويلي.

يرتبط المؤول النهائي بالمؤول الديناميكي ولا ينفصل عنه في هذه السيرورة التأويلية، وهو عماد نظرية بورس حول العلامة والإدراك، "وعلى هذا الأساس تشير الثلاثية، في العلامة والإدراك على

حد سواء إلى تطور لولي، يتقدم إلى الأمام من خلال استعادة ما تمت مراكمته في الحلقة السابقة... بل يستعيده باعتباره جزءا من تركيبته اللاحقة، وهكذا إلى ما لانهاية⁽²⁷⁾. وعلى هذا تكون المعرفة التي نصل إليها في نهاية المطاف والتطور حصيلة لما سبق من المعارف، وهذه الحصيلة النهائية هي منطلق لسيرورة أخرى مبنية من معارف متراكمة ومتراصة ومتصلة غير منقطعة عن بعضها البعض، تبني من خلال تعالقها وتطورها ذاكرة موسوعية.

دور الموسوعة في العملية التأويلية:

يستند التأويل إلى الموسوعة حيث يتم تحديد العلامات وفق الفهم والإرجاع الموسوعي، ومنه تكتسي العلامة طابعها الانفتاحي؛ ذلك أن التحليل بالاعتماد على الموسوعة هو ما يضمن انفتاح العلامة، غير أن "التوالد اللامتناهي الذي يشير إليه المبدأ الذي تقوم عليه العلامة، أمر ممكن فقط ضمن الحالات التي تمثلها موسوعة منفصلة عن أي سياق، تماما كما هو حال الكلمة المعزولة. فكلمة بحر يمكن أن تدرج ضمن عدد لا متناه من السياقات، ويمكن ربطها بكل الوحدات الممكنة، إنها قادرة على انتقاء كل المدلولات الإيحائية الممكنة. لكنها مجرد ما تخصص من خلال سياق معلوم، فإنها تنكشف على نفسها وتفقد قدرتها على الانتشار الحر، حينها تتناقص ممكّنات التأليف داخلها وتتوالى عمليات التقليل التي تنصب على حدود السياقات نفسها. وسيكون بإمكان السلاسل الدلالية الارتداد إلى نفسها من خلال التسييج الذي يفرضه بناء خطاب محدد ببداية ونهاية. إن النص ليس امتدادا لانهايا، بل هو القدرة على بناء عالم محدود في الوجود وفي الوعي"⁽²⁸⁾. فرغم اتساع الموسوعة اللامتناهي إلا أن ربطها بسياق محدد يعد إلجاما للفهم الموسوعي، فانفتاح العلامة بالاعتماد على الموسوعة وسيرورة التأويل معتمد على إبقاء هذه الموسوعة غير محدودة، وذلك باستغراقها لكل السياقات الممكنة دون حصرها في سياق محدد، لأن تقييد الموسوعة بسياق يعد حصرا للدلالة، فكلمة البحر إذا استعملت في سياق البحارين وعلماء البحار فإنها تدل على البحر الحقيقي، أما إذا استعملت في عرف العروضيين فإنها تنزاح عن الاستعمال الحقيقي إلى استعمال متعلق بالعرف والسياق المعرفي والثقافي، وهكذا دواليك...

وعلى هذا الأساس فإن مدلول كل علامة مرتبط بالسياق الموسوعي والثقافي الذي تستعمل فيه، وعلى هذا تقف سيرورة التأويل والانفتاح في هذا السياق، لكن تبقى قائمة في باقي السياقات الموسوعية الثقافية الأخرى، "ولقد حاول شارل ساندس بيرس، الذي أصر على العنصر الحدسي للتأويل، وعلى لانهائية التطبيق السيميائي، وعلى جوهر امتناع العصمة من الخطأ عن أي استنتاج تأويلي، تأسيس نموذج تبادي أدنى minimal لمقبولية التأويل على أساس من إجماع المجتمع (والذي لا يختلف كثيرا عن فكرة جادامير القائلة بتراث تأويلي). أي نوع من الضمان يمكن للمجتمع أن يوفره؟ أعتقد أنه يوفر ضمانا واقعيا. لقد رتبت أجناسا للبقاء بقيامها بحدوس أثبتت جدواها من الوجهة الإحصائية"⁽²⁹⁾، وعلى هذا يبقى التأويل مرتبطا بثقافة المؤول والمنتج للعلامة، وهذا ما يجعل من المجتمع مرجع التأويل ومصدرا له. فكل علامة يحدد مدلولها من خلال سياق استعمالها، وثقافة مستعملها، وكل شيء تحدد وظيفته انطلاقا من العمل الذي يقوم به ويستعمل فيه، وفي هذا الصدد "يقترح ريتشارد رورتي أنه يمكنني استخدام مفك حل مسمار، لفتح صندوق ولأحك به أذني. ذلك ليس دليلا على أن كل شيء صالح، بل بالأحرى أن الأشياء تتوضع من وجهة نظر الملاح المتصلة بالموضوع - أو الانتماءات - التي تبرزها. ولكن يمكن للمفك أن يكون أسود، ذلك ملحق منبت الصلة بأية غاية (ما عدا، ربما إذا كان علي أن أستخدمه لأحك أذني في أثناء حفلة رسمية مرتديا بذلي الرسمية) كما لا يمكنني تصنيف المفك ضمن الأشياء المستديرة لأنه لا يظهر خاصية كونه مستديرا. يمكننا فقط أن نعتبرها متصلة بالموضوع أو منتمية، تلك الملاح القابلة للاكتشاف بواسطة ملاحظة عاقل - حتى إذا كانت باقية غير مكتشفة حتى الآن - ويمكننا فقط عزل الملاح التي تبدو متصلة تماما بالموضوع من وجهة نظر غرض معين"⁽³⁰⁾، وهكذا هي العلامات تحدد دلالتها من خلال مجال استخدامها.

في هذا السياق يتطرق إيكو إلى مفهوم المؤول وعلاقته بالسيرورة المنطقية للعلامة وارتباط العلامات المتولدة ببعضها البعض، وهو ينطلق من "اعتبار المؤول حصيلة سيرورة منطقية استلزامية، فلا يعد دائما بمثابة مدلول لكلمة من الكلمات، ولكن يمكن اعتباره نتيجة برهانية حجاجية، منتشلة من مقدمات منطقية. تبدى لنا المدلولات من خلال هذا السياق مضمرة أحيانا بواسطة المقدمات

المنطقية، بعبارة أخرى يعتبر المدلول كل تمفصل تمت عملية استلزامه أو اقتضائه عن طريق الدليل من الناحية الدلالية⁽³¹⁾، فيكون يوافق بورس على السيرة الامتنائية ولكن ليس بالمفهوم التفكيكي الذي يبقى الانفتاح عملية هلامية سطحية. إنّ المؤول النهائي يمكن العلامة من أن ترسو على محطة دلالية معينة، وهو في الوقت نفسه انفتاح من نوع آخر، لأنّ كل علامة تؤدي إلى علامة أخرى، فالمؤول النهائي هو محطة مرحلية، ولا يمكن أن نجعل من السيميوزيس البورسي عالما من الانفتاح الحر المطلق - مثلها هي الحال بالنسبة للمتاهة الهرموسية - لأننا في هذه الحالة نصبح أمام حالة هلامية، ولوقف هذه الحرية المطلقة غير المقيدة بأي قيد، "ولكي يدعم إيكو تحليله ورأيه الأصيل فيما يخص الحدود التي تتحكم في المسار الانهائي للسيميوزيس البورسية، يستثمر كذلك مفهومًا آخرًا من بيرس وهو المؤول النهائي، إذ لاحظ بأنّ هذا المفهوم يساعد على غلق الطريق أمام الانفتاح المطلق لمحة لا بد من التوقف عندها، فحسب إيكو لا ينبغي لأحد متضلع في قراءة بيرس أن ينفي الطابع التواصلية الذي يعد جوهرًا في فكره، فلقد حاول بيرس تكرارًا أن يجد أرضية تواصلية مشتركة تساعد على تمرير التفصلات الدلالية، وما مفهوم العادة الذي اهتم به إيكو كثيرًا، إلّا دليل على ذلك، فالسيميوزيس تساعد على فهم انفتاح التأويل بطريقة دينامية، ولكن مفهوم العادة، أو الجماعة التواصلية يحد من هذا الانفتاح لصالح الأبعاد التواصلية، لأنّه يفهم كقانون وكقاعدة وكأموس، أي كنظام يسبح فوضى الانفتاح"⁽³²⁾.

إنّ الانفتاح بمفهومه المطلق هو معادل لمفهوم الفوضى والهامية لأنّه يجعل من كل علامة وكل نص كيانًا غير قار، فلا يمكن القبض على المعاني أبدًا، لأنها بانفتاحها انفتاحًا هلاميًا تفقد الصلة ببعضها وبمنطلق عملية التأويل، والمؤول النهائي الذي اهتم به إيكو هو الذي يمكن من توقيف هذا الفيضان من المعاني، فلا يمكن أن يكون هناك تواصل في غياب استقرار للدلالة، والتواصل الاجتماعي يفترض عائدًا مستمداً من المجتمع يمكن من تحديد المعنى النهائي، وذلك باستثمار المعارف والثقافة الاجتماعية للجماعة.

يمتد مفهوم العامل إلى السيميائية السردية، وقد استثمر إيكو هذا المفهوم في تحليله للنصوص الأدبية مؤكداً في مؤلفه القارئ في الحكاية أنّه "توجد عاملات مناصبة تؤدي وظيفتها الدلالية فقط

إزاء مناصبتها، إلاّ أنّ مصيرها السياقي يمكن أن يحدّد بناءً على تحليل تقطيعي في شكل موسوعة⁽³³⁾. تعتمد هذه الموسوعة بردها إلى سياق معين بوقف سيرورة السيميوزيس عند محطة موافقة للسياق باستثمار الأبعاد الثقافية والمعرفية، حيث "تتعلق دائرة كلّ آن ولا يسعها أن تتغلق على الإطلاق. وعليه فإنّ نسق الأنساق السيميائية، الذي يمكنه الظهور على نحو مثالي، هو بمثابة عالم ثقافي منفصل عن الواقع، قد يفضي بدوره إلى التأثير في الواقع وتحويله؛ على أنّ كلّ فعل تحويلي من شأنه أن يتحوّل بدوره إلى علامة وينشئ مساراً سيميائياً جديداً"⁽³⁴⁾، وعلى هذا الأساس نصل إلى نتيجة مفادها أنّ المؤول النهائي يوقف سيرورة السيميوزيس مرحلياً، عند محطة جانبية لتصبح هذه المحطة فيما بعد منطلقاً للتأويل وتأسيساً لتطبيق سيميائي متولد، إن توقيف الدلالة شيء وقطع تدفق الدلالة والعلامات شيء آخر، فالمؤول النهائي لا يقطع عملية التولد والتداعي، بل يجعل للعلامة أساساً تقوم عليه، ذلك أنّه يربطها بكيان ثقافي وسياق موسوعي، فتكتسي العلامة حين ذلك مميزاتاً ودلالاتها، فكل عملية تواصلية تستوجب عملية تشفيرية استشفارية ولا يمكن لهذه العملية أن تتم في ظل تداع حر غير مقيد بغاية، وغير مقترن بمحطة، وبفضل المؤولات المتماصة والمتراصة، خاصة المؤول النهائي تنجح هذه العملية التشفيرية الاستشفارية، وتصبح العملية التواصلية فعالة، سواء في النصوص الإبداعية أو في المحاورات اليومية.

وتخلاصة لما سبق حول المؤول النهائي ودوره في وقف الدلالة المتولدة، يمكن القول إنّ هذا المؤول يعتبر "محطة نهائية داخل سيرورة التأويل، ومهمته هي تحجيم السيميوز والتقليص من حجمها. وعلى هذا الأساس، فإنّ القوة المدمرة التي يطلق عنانها المؤول الديناميكي (من حيث إنه مرتبط بمعرفة واسعة)، ولا يمكن أن تتوقف من تلقاء نفسها، ولا يوجد داخل هذا المؤول ما يوحي بإمكانية التوقف عند دلالة بعينها. إن إيقاف هذه الحركة لا يتم إلا من خلال الاستعانة بمنطق آخر للتدليل، أو إن شئنا القول، علينا إرساء دعائم سياق خاص يستدعي الانتقاء والحذف والتحجيم، وتلك هي مهمة المؤول النهائي كما يرى ذلك بورس⁽³⁵⁾. يفتح المؤول الديناميكي الدلالة على مصراعيها، باستحضاره للموسوعة الثقافية بشاعتها دون حصر لها في سياق محدد، فهو يطرح احتمالات متنوعة ومتعددة فقط، دون أن يحدد السياق الموسوعي المناسب لمقام الاستعمال

والتواصل، والمؤول النهائي يمكن من حصر انفتاح الدلالة عن طريق تحديد السياق الموسوعي الخاص بهذا المقام من التواصل دون غيره.

يمكن المؤول النهائي من تحديد الدلالة في إطار سياق ثقافي محدد انطلاقاً من "معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر)، إلى إثارة سلسلة من الدلالات البالغة الغنى والتنوع (المؤول الديناميكي)، ليصل في نهاية الأمر إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي)" (36). وهو ما يظهر للوهلة الأولى بأنه سيل عارم من الدلالات المتوافدة غير المقيدة، الذي يولد رؤية ضبابية فرضها المؤول الديناميكي الذي انطلق من المؤول المباشر، فاتحاً المجال لكل تأويل محتمل في أفق موسوعي ممتد دون حصر.

إن هذه النهاية التي يتيحها المؤول النهائي ليست نهاية للسيميوزيس ومسيرته المتنامية، "ولعل هذا ما يجعل من النهاية مضموناً زمنياً، يتحدد داخله المؤول النهائي باعتباره مصدراً لإنتاج دلالات لا سلطة للزمان عليها. إنَّ النهاية هنا تتعلق ببداية ونهاية مسار تدليلي ما، فما يبدو كنهاية منطقية لمسار دلالي ما، سيتحول إلى نقطة بدئية داخل مسار دلالي آخر، إنَّه الرغبة الدفينة واللاشعورية التي تستشعرها الذات المؤولة في الوصول إلى دلالة بعينها انطلاقاً من سيرورة تدليلية بعينها. أو هو محاولة الذات لخلق محميات دلالية ترييحها من عبء المتسبب واللامحدود واللاقار من خلال رسو على موقف دلالي بعينه" (37). إن هذه الدلالة التي ينتجها هذا المؤول هي دلالة خارج إطار الزمان، فليس الزمن من يحدد الدلالة النهائية، بل هي الرغبة في الخلاص من هذه المتاهة غير القارة، والتمكن من ربط الممثل بموضوع معين، عبر هذا الوسيط المتنامي.

الهوامش:

- 1 - حنون مبارك: دروس في السيمياء، دار توبقال للنشر، ط 1، المغرب، 1987، ص: 81، 82.
- 2 - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، "مدخل لسيميائيات ش س بورس"، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص: 168.
- 3 - نفسه، ص: 178.
- 4 - نفسه، ص: 178.

- ⁵ - إمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري، د. ط، سورية د. س، ص: 32.
- ⁶ - إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط 2، المغرب، 2004، ص: 119.
- ⁷ - نفسه، ص: 120.
- ⁸ - سعيد بنكراد: سيوررات التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2012، ص: 34.
- ⁹ - نفسه، ص: 32.
- ¹⁰ - نفسه، ص: 32.
- ¹¹ - إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص: 120، 121.
- ¹² - نفسه، ص: 121، 122.
- ¹³ - نفسه، ص: 122.
- ¹⁴ - نفسه، ص: 123.
- ¹⁵ - وحيد بن بوغريز: حدود التأويل، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2008، ص: 59.
- ¹⁶ - إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص: 124.
- ¹⁷ - نفسه، ص: 124.
- ¹⁸ - وحيد بن بوغريز: حدود التأويل، ص: 59.
- ¹⁹ - إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص: 127.
- ²⁰ - وحيد بن بوغريز: حدود التأويل، ص: 59، 60.
- ²¹ - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 147.
- ²² - نفسه، ص: 148.
- ²³ - نفسه، ص: 149.
- ²⁴ - نفسه، ص: 151.
- ²⁵ - نفسه، ص: 152.
- ²⁶ - جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، تر عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار، ط 2، سوريا، 2011، ص: 143.

- 27 - ينظر: سعيد بنكراد: سيرورات التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، ص: 343.
- 28 - نفسه، ص: 347.
- 29 - إمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، ص: 177.
- 30 - نفسه، ص: 178.
- 31 - وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل، ص: 34.
- 32 - نفسه، ص: 35.
- 33 - إمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 1996، ص: 22.
- 34 - إمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، ص: 54.
- 35 - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 152.
- 36 - نفسه، ص: 153.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1) إمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري، د. ط، سورية.
- 2) إمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 1996.
- 3) إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط 2، المغرب، 2004.
- 4) جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، تر عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار، ط 2، سوريا، 2011.
- 5) حنون مبارك: دروس في السيمياء، دار توبقال للنشر، ط 1، المغرب، 1987.
- 6) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، "مدخل لسيميائيات ش س بورس"، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- 7) سعيد بنكراد: سيرورات التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2012.
- 8) وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2008.

